المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أمَا بعد:

فلقد تعرضت الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل إلى انتكاسات و مشكلات عديدة، وصلت إلى حد احتلال الأعداء أراضي المسلمين، وقد تعرض بعضها إلى التقسيم والتجزئة، إلا أنَ الله تعالى قد هيأ في كل هذه العصور لهذه الأمة نخبة من صفوتها وهم علماؤها ليقودها وينتشلوها مما حلَ بها من مصائب ومحن، وذلك لما لهم من مكانة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى، ومنزلة مهمة في المجتمع الإسلامي ،فهم ورثة الأنبياء،وأصحاب الرأي والمشورة،وإليهم تعود الأمة في فهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،وهم صمام الأمان لهذا المجتمع عندما تتعرض الأمة إلى الفتن والمحن،وفي هذا العصر تتعرض أمتنا إلى محن كبيرة،ولاسيما ما يجري في بلدنا العراق،فما يجري علينا الآن يشبه ما تعرضت إليه امتنا في الأندلس ، لذا أحببت أن أتعرض إلى هذا الجانب وأن أذكر مكانة الفقهاء ودورهم السياسي في الأندلس لأقدمه إلى هذا المؤتمر المبارك لعلَنا نستفيد من تجربتهم وأن نضع حلولاً لما تتعرض إليه الأمة في الوقت الحالي من مصائب وويلات ،وأن نستفيد من هذه التجارب المريرة لكي لا نقع في الأخطاء السابقة التي دفعت فيها الأمة ثمناَ غالياً ألا وهو حضارة الأندلس وأرضها ، فعلى علمائنا وفقهائنا أن يستفيدوا من تجربة علماء الأندلس فيأخذوا الصحيح ويتركوا الخطأ وأن ينصروا الحق، لكي يوحدوا الأمة ويوجهوها بالاتجاه الصحيح .

لقد تكون هذا البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

. أمَا المبحث الأول فقد ذكرت فيه مكانة الفقهاء في الأندلس.

وذكرت في المبحث الثاني تفكك دولة الأندلس إلى طوائف .

وأمَا المبحث الثالث فقد خصصته لدور الفقهاء السياسي في الأندلس وفيه أربعة مطالب.

أمَا المطلب الأول فقد ذكرت فيه دعوة الفقهاء إلى الوحدة.

وأمَا المطلب الثاني فقد ذكرت فيه معارضة الفقهاء ملوك الطوائف.

وأمَا المطلب الثالث فجاء في دعوة الفقهاء إلى الجهاد.

وذكرت في المطلب الرابع تخليص الأندلس من حكام الطوائف.

وجاءت الخاتمة بأبرز نتائج البحث.

وأخيرا اسأل الله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتي ووالديَ انه سميع مجيب الدعاء .

المبحث الأول :مكانة الفقهاء في الأندلس

كان للفقهاء مكانة مرموقة ويحسدون عليها في المجتمع الأندلسي، وكان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل على مذهب الإمام الأوزاعي، وتولى الإفتاء في زمانه أبو عبد الله صعصعة بن سلام الشامي المتوفى سنة (١٩٢هـ)، وتولى الافتاء أيضاً في زمن هشام بن عبد الرحمن، ثم بدأ مذهب مالك في الانتشار في عهد هشام.

وقد عرف عبد الرحمن الداخل بحبه للعلم والعلماء وبناء المساجد[١].

وجاء بعده ابنه هشام الذي كان متديناً ميالاً إلى العلم والعلماء والاستماع لهم، فاجتذب الفقهاء إليه وأحبوه، وكان شديد التقى، وحينما سمع الإمام مالك سيرته أحبه وأعجب به، وكان الناس في زمانهِ يشبهونه بعمر بن عبد العزيز لعدله وتقواه.

وبعد وفاة هشام سنة (١٨٠هـ- ٧٩٦هـ)، اعتلى كرسي إمارة الأندلس بعده ابنه الحكم بن هشام (١٨٠هـ- ٢٠٦هـ)، وقد اختلفت سيرته عن سيرة أبيه هشام الذي عرف بالصلاح والتقى ومصاحبتهِ للعلماء والفقهاء.

أمّا الحكم فكان منهمكاً في الملذات والشهوات وشرب الخمور، واستذكر الناس لهذهِ الضرائب وزاد نفورهم أن يتولى جبايتها منهم نصراني.

في هذا كله لم ينشر الحكم شيخاً أو فقيهاً من الفقهاء، ولم ينالوا المنزلة الكبيرة التي كان جمهور الناس ينزلونهم إياها، فجمهور الناس يعدون الفقهاء رؤساءهم ومرشديهم.

نعم أنّه كان يستدعي الفقهاء إلى قصره ليسألهم في بعض الأحيان عمّا أهمه، ولكنه عندما احتاج إلى قاضٍ بعد وفاة المصعب بن عمران لم يعرض الأمر عليهم، بل على رجل من أهل بيته هو أبو العباس المرواني، فأشار بمحمد بن سعد بن بشير كاتب المصعب بن عمران، فأخذ برأيه، وكذلك لم يستشر الحكم الفقهاء في الضرائب

---

[١] المقري،أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ-١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .بيروت :دار الكتاب العربي ،(بلا .تأريخ) ٢١٣/١.

التي قررها باسم المعونة والمغارم، فضلاً عن إيقاع الحكم بأهل طليطلة وإنزاله مذبحة ذريفة بهم لإرغامهم على الطاعة، وحروبه الطويلة مع عميه سليمان وعبد الله، وسجنه عميه مسلمة الملقب بكليب وأمية أبني عبد الرحمن الداخل، ثم إنصرافه إلى اللهو والصيد، وغير ذلك.

كل ذلك أثار عليه غضب الناس، فاجتهد الكثير من الفقهاء واتفقوا على عزله لأنه لا يستحق الإمارة[١].

كل هذهِ الأسباب التي ذكرناها جعلت الفقهاء يثورون على الحكم ليخلعوه عن الحكم إلاّ أنه كشف أمرها في جمادي الأخرة (١٨٩هـ/مايو ٨٠٥م)، إلاّ أنّه –أي الحكم– كشف هذهِ الثورة قبل أن تقع، واشترك فيها عدد كبير من كبار فقهاء أهل قرطبة ورجال القصر.

وكان هؤلاء الفقهاء قد قاموا بمفاتحة أحد أهل الشورى بقرطبة وهو أبو الشماس أحمد بن المنذر بن الداخل الأموي وهو ابن عم الحكم ليتولى الإمكان مكان ابن عمه الحكم، وعرف أحمد بن المنذر بالصلاح والتقوى، فتوجه إليه الفقهاء وأخبروه بالأمر فأبدى الميل إليهم إلاّ أنه خانهم وكشف أمرهم للحكم، فقبض الحكم على المشتركين بهذهِ الثورة وقام بإعدام اثنين وسبعين منهم وصلبهم على خشب منصوبة.

وكان من بين المصلوبين من الفقهاء يحيى بن مضر وأبو كعب وأخوه، ومالك بن يزيد القاضي وموسى بن سالم الخولاني وغيرهم من الفقهاء، وهرب من المشتركين يحيى بن يحيى، وقرعوس بن العباس، وطالوت بن عبد الجبار، وعيسى بن دينار، وهم أعلام وفقهاء المالكية في عصرهم، أي أن الحركة في صميمها دينية دعا إليها الفقهاء وأيدوها بما لهم من سلطان على الشعب[٢].

وقد فشلت هذهِ الثورة الأولى ويعزى الدكتور حسين مؤنس أسباب فشل هذهِ الثورة الأولى إلى الفقهاء الذين دعوا إليها وألبوا الناس دون أن يتصدوا لحمل المسؤولية،

---

[١] مؤنس،حسين ، شيوخ العصر في الأندلس.القاهرة :الديار المصرية للتأليف والترجمة،١٩٦٥. ص٢٣- ٢٤.

[٢] ينظر ابن القوطبة، تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، تحقيق إبراهيم الأبياري (ط٢، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٨٩): ص٦٨، ومؤنس، شيوخ العصر: ص٢٥، بتصرف.

فوقع في يد الحكم منهم من وقع وفرّ الباقون، وشعر الحكم بخوفٍ شديد من أهل قرطبة بعد الهيج الأول، فأجتهد في حماية قصره وتحصين البلد، وفتح في سوره باباً يؤدي إلى الأرباض الشرقية، وكانت فيها معسكرات الجند، واحتفر حول السور حفيراً، وأصبح العداء بينه وبين رعيته سافراً.

وكان الفقهاء يشعرون نحو الحاكم أنه فاقد للأهلية، وهذا أدى إلى توتر بين الحاكم والرعية، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا التوتر إلى إنفجار ثان، لأن أهل قرطبة لم يكونوا جماعة سهلة القياد، وكان أشدهم حملة على الحكم أهل الربض الجنوبي، وهو ربض شقندة، وكان أشبه بحي للعمال وأهل الأسواق وغيرهم ممن يتأثرون بآراء علماء الدين، ويعتبرونهم قادتهم، وقد نفر منهم الحكم نفوراً شديداً، وامتلأ صدره بالحقد عليهم، وبادلوه هذا الشعور وتعرضوا له وأهانوه وهو عائد من من ماردة في العام الذي تلا الثورة (١٩٠هـ/ ٨٠٦م)[١].

فقبض على تاجر من زعمائهم ونفر آخر وصلبهم.

وفي الوقت نفسه امتلأت قرطبة بجند الحكم واستطالوا على الناس، ثمّ وقع الأنفجار الحاسم في ١٣ من رمضان ٢٠٢هـ/٢٥ من مارس ٨١٨م، فقام أهل ربض شقندة وعامة قرطبة قياماً عاماً على الحكم، وكادوا أن يقضوا عليه، لولا أنّ قيادتهم لم توفق إلى تثبيتهم أمام جند الأمير وقواده، وانتهى الأمر بالقضاء على الحركة قضاءاً مروعاً، فقتل الألوف من الناس، وقضى الحكم بإخلاء الربض من سكانه، فخرجوا ألوفاً استقر بعضهم في المغرب وسارت بقيتهم في البحر، ونزلوا الأسكندرية واستولوا عليها، ثمّ انتقلوا إلى جزيرة أقريطش ففتحوها[٢].

وأرى أن تحميل الفقهاء سبب فشل الثورة الأولى ضد الحكم وأن بعضهم هرب ووقع بعضهم في يد الحكم فيه تحامل عليهم من قبل الدكتور مؤنس، لأنّ الفقهاء لم يفروا إلاّ بعد أن اكتشف أمرهم وغدر بهم من قبل ابن عم الحكم، فهرب من هرب ووقع بعضهم بيد الحكم وقام بضرب أعناقهم وصلبهم بعد ذلك، وهم اثنان وسبعون فقيهاً

---

[١] مؤنس، مرجع سابق: ص٢٦.
[٢] مؤنس، مرجع سابق: ص٢٧.

منهم كبار الفقهاء وقد ذكرتهم فهي ليست معركة بين طرفين حتى تحملهم مسؤولية الهرب والفرار منها وإنما غدر بهم كما قلنا، فإيهما أفضل أن يسلموا أنفسهم للحكم لتضرب أعناقهم بطريقة سهلة أو يهربوا ويتخفوا عنه، ثم لو أنهم وقعوا بيد الحكم جميعاً ولم يبق واحد منهم فمن الذي هيجهم وقادهم في الثورة الثانية والله اعلم.

ويذكر الرواة أنّ الحكم أصيب بعد هذا الحادث بعلة طاولته أربعة أعوام، أي حتى وفاته، والعلة نفسية أولاً، ثم كان لها أثر على جسمه بعد ذلك، ويقول ابن عذاري: إنّه (تاب إلى الله متاباً ورجع إلى الطريقة المثلى، وقال: إنّ الآخرة هي الأبقى والأولى، فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى، وأقر بذنوبه واعترف)[١].

يقول د.حسين مؤنس (ومعنى ذلك أنّه أقرّ بسلطان الدين وعلمائه، وعول على أن يؤثق علاقاته بهم، ليكونوا عماد سلطانه)[٢].

وما أن مات الحكم واستلم زمام الملك ابنه عبد الرحمن (٢٠٦هـ) حتى أعاد إلى الفقهاء مكانتهم وقربهم منه وجعل يحيى بن يحيى في مقام عال، إذ لم يكن يولي قاضياً بغير رأيه ومشورته، فكان بمثابة وزير العدل.

وقد كان الفقهاء لهم شخصيتهم واحترامهم وتقديرهم لدى الأمراء، وذلك لأنّهم قدموا الآخرة على الدنيا.

وقد روي أنّ عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس نظر إلى جارية في رمضان، فلم يملك نفسه أن واقعها، فندم وطلب الفقهاء، فحضروا فسألهم عن توبته، فقال له يحيى بن يحيى: صم شهرين متتابعين، فسكتوا، فلّما خرجوا قالوا ليحيى: مالك لم تفته بمذهبنا عن مالك، أنّه يخّير العتق والصوم والأطعام؟ فقال: لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه أن يطأ كل يوم، ويعتق رقبة، فحملتهُ على أصعب الأمور لئلا يعود.

وهذهِ الرواية تدل دلالة واضحة على أن الأمراء كانوا لا يتعدون حدود الله وإذا أخطأوا كانوا يسارعون إلى التوبة، وكذلك فأنّ الفقهاء لم يكونوا يسايرون الأمراء، من

---

[١] ابن عذارى ،احمد بن محمد (ت بعد ٧١٢ه-١٣١٢م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج . س كولان وليفي بروفنسال .ط٢ .بيروت :١٩٨٠ ٨٠/٢.

[٢] شيوخ العصر: ٢٨.

أجل متاع زائل، بل التزموا بدورهم الذي خطه الشرع لهم وهو إصلاح المجتمع، وهذا ما حدث مع القاضي المنذر بن سعيد حين دخل على عبد الرحمن الناصر في قصره الفخم لمّا بناه وجعل سقفه من ذهب وفضة، فتلا عليه قوله تعالى: (وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)[١]، فوجم عبد الرحمن الناصر، ودموعه تتساقط خشوعاً لله سبحانه، ثمّ أقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه، وقام عن مجلسه ذلك، وأمر بنقض سقف القبة وأزال الذهب والفضة وبنى السقف كما كانت تبنى السقوف في ذلك الزمان[٢].

وكان المرابطون على المذهب المالكي، فانتصروا لفقهاء المذهب، لأن الدولة المرابطية أساساً هي دعوة إصلاحية استمدت تعاليمها من مذهب الإمام مالك، ولقد حظي فقهاء المالكية في دولة المرابطين بنفوذ واسع فنشط التأليف في الفقه والرواية والحديث وظهر عدد من أئمة هذا الفقه لم يتكرر أمثالهم.

وهذهِ المكانة إنّما حصلوا عليها بفضل دراستهم للمذهب المالكي وتطبيقهم لأحكامه في شتى مجالات الحياة في المغرب الأقصى وذلك بفضل ولاة الأمر المالكيين وعلماء الدولة المالكية يقول المراكشي عن الأمير علي بن يوسف (ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويخطى عنده إلاّ من عَلِم عِلْم الفروع أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ع، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء)[٣].

---

[١] سورة الزخرف آية: ٣٣.

[٢] ينظر حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس: ص٢٧٩، وينظر نفح الطيب: ٢٢٣/١، وابن القوطبة، تاريخ اختتام الأندلس: ص٧٣، وعصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس (مكتبة نهضة الشرق): ص٨٣- ٨٤.

[٣] المراكشي، المعجب: ص١٧٢.

وكان ابن تاشفين محباً للعلماء معظماً لمكانتهم، يقول ابن أبي زرع: (وكان –أي يوسف بن تاشفين– محباً للفقهاء والعلماء الصلحاء، مقرباً لهم صادراً عن رأيهم متكرماً لهم)[١].

ورحب بكل العلماء وعلماء الأندلس على وجه الخصوص الذين سارعوا إلى عاصمة المرابطين ليكونوا في ظل ورعاية أمير المسلمين بقول المراكشي: (فانقطع إلى أمير المسلمين –يوسف بن تاشفين– من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى اشتهت حضرته حضرة العباس في صدر دولتهم)[٢].

واتبع نفس السياسة أمير المسلمين علي بن يوسف إذ كان محباً للفقهاء والعلماء مكرماً لهم، يقول المراكشي: (واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين)[٣].

وكان يخرج بنفسه لزيارة العلماء وتكريمهم حتى أنه زار ابن بلارذج أحد علماء المالكية وكان عبداً صالحاً ومات بمسكورة سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م)[٤].

وصار للفقهاء في زمنه تدخل في كل شؤون الدولة، ويقول المراكشي (واشتد إيثار – أي علي بن يوسف– لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكتهِ دون مشاورة الفقهاء)[٥].

وكان القضاة لا يصدرون أحكامهم إلاّ بمشورة أربعة من الفقهاء[٦].

وصارت الفتيا والأحكام مستمدة من مذهب الإمام مالك حتى نهاية الدولة ولا يلتفت إلى غيرها من الأحكام، وقد أكد ذلك تلك الرسالة الصادرة من تاشفين بن علي بن يوسف سنة (٥٣٨هـ/١١٤٣م) إلى أهل بلنسية يحدد لهم فيها أنّ مناط الأحكام هو مذهب الإمام مالك يقول فيها: (وأعلموا رحمكم الله أنّ مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدو، على ما أتفق عليه السلف الصالح (رحمهم الله) من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس (رضي الله عنه)

---

[١] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط ، ١٩٧٢م : ٣٨/٢.
[٢] المراكشي، المعجب: ص١٦٣.
[٣] المصدر نفسه: ص١٧١.
[٤] د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية: ص٣٣٧.
[٥] المراكشي، المعجب: ص١٧١.
[٦] المصدر نفسه.

فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم به ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال عن الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه واتبع هواه)[١].

وصارت مدن مراكز لدراسة المذهب المالكي وتخريج الفقهاء المالكيين في مختلف بلاد المغرب الأقصى ومنها المدن الأندلسية التي أنجبت الفقهاء الكبار الذين حفلت بهم المجالس والندوات ودور العلم وفي مقدمة هؤلاء أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠- ٥٢٠هـ/١٠٥٨- ١١٢٦م)، فقيه الأندلس وعالم العدوتين، ومقدماً على جميع أهل عصره، الذي ترك حلقة مدرسة لها أهميتها وثقلها في حركة التأليف في الفقه المالكي، فقد أخذ عنه كثيرون من طلبة الأندلس والمغرب، ومن أشهرهم قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أصبغ الأزدي[٢] (ت ٥٣٦هـ/١١٤١م) و الفقيه أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الوراق[٣] (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م) والقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) والمحدث الفقيه أبو مروان عبد الملك بن مسرة اليحصبي (ت ٥٥٢هـ/١١٥٧م) وغيرهم.

وكان أبو الوليد بن رشد بإجماع من ترجم له ناسكاً عفيفاً، يجب التدريس، وطريقته سهلة في إيصال المعلومات للمتلقي، وتفكيره منظم ويحرص على نفع الطلبة ولم ينل ابن رشد تقدير الأوساط العلمية بالأندلس فقط، بل أجله الناس في العدوتين، وكانت له منزلة عند أمير المسلمين علي بن يوسف، ولم يقتصر نشاطه على العلم فقط بل كانت له مواقفه السياسية المعروفة[٤].

ولأبي الوليد بن رشد مؤلفات عديدة في مختلف العلوم الإسلامية ، منها كتب الفقه والتي منها (البيان والتحصيل والمقدمات لأوائل كتب المدونة ، وله في علم الحديث كتاب (تهذيب مشكل الآثار) لأحمد الطحاوي الحنفي (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م)[٥].

---

[١] د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٤٦٥.

[٢] ابن بشكوال،خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨هـ-١١٨٢م) كتاب الصلة .القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر،١٩٦٦م ٢/٥٥٤- ٥٥٥، رقم الترجمة (١٣٨٨).

[٣] المصدر نفسه: ٢/٥٩١، رقم الترجمة (١٢٩٨).

[٤] ينظر دندش، عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا (طبعة بيروت، ١٩٨٨م ١٩٨٨م ص٣٩٠

[٥] ينظر دندش، مرجع سابق: ص٣٩١.

ومن أئمة فقهاء الفقه المالكي في هذهِ المرحلة أيضاً أبو الوليد سليمان بن خلف بن وارث التجيبي الباجي (٤٠٢- ٤٧٣هـ/ ١٠١٢- ١٠٨١م) الذي تأثر به عدد كبير من علماء الأندلس، وكان له دور بارز في الحياة السياسية فضلاً عن الحياة العلمية ، ومؤلفاته كثيرة جداً وفي مختلف الفنون الإسلامية في الفقه والأصول والحديث وعلم الكلام وعلوم القرآن والجدل وغيرها، وقد انتفع بهذهِ المؤلفات أعداد كثيرون في زمانه ولا يزال ينتفع بها طلبة العلوم والمعارف في زماننا.

وذكر المقري كلاماً عن أبي الوليد الباجي نصه: (أنّ كتبه لم تشهره قدر اشتهاره بمساجلاته ومجادلاته مع ابن حزم، ولم يكن أحد في الأندلس يستطيع مجادلته قبله، فناظره وأفحمه، وأشهر باطله)[١].

ويبدو لي أن هذا الكلام غير دقيق لأنَ شهرة أبي الوليد الباجي لم تأت من مناظراته لأبن حزم فحسب وإنّما جاءت من مؤلفاته العديدة في مختلف الفنون الإسلامية فهو قد ترك في كل فن منها كتاباً أو أكثر، وما علم الجدل والمناظرة إلاّ نوعاً واحداً من هذهِ العلوم، ثم إن لأبي الوليد الباجي دوراً سياسياً جعله معروفاً ومشهوراً الا وهو السعي في جمع ولمَ شمل الأمة عندما تمزقت وأصبحت دويلات لمواجهة الغزو النصراني في الأندلس آنذاك.

وقد ظهر في هذهِ الفترة عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف المسكوني من أهل لبلة الذي روى عن أبيه وعن أبي الحكم بن برجان وعن أبي العباس بن العريف، وكان من الفقهاء المشاورين، رحل إلى المشرق في صدر عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م) عند ابتداء فتنة المريدين والفقهاء بالأندلس[٢].

ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد بن عثمان (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م) ويعرف بابن القابلة، أخو بكر محمد بن القابلة داعية ابن قسي، وكان عالماً متفنناً وفقيهاً متمكناً، وكاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً، عنده حظ وافر من علم الأصول وعلم الكلام والطب

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٦٢/٢.
[٢] دندش، مرجع سابق: ص٣٩٢.

انتقل من قرطبة عندما بدأت الفتنة إلى بلده شلطبش ثم رحل إلى مراكش[١]، وانتقل الفقيه عبد الحق بن عبد الرحمن بن سعيد الأزدي (ت ٥٨٢هـ/١١٨٦م) من أشبيلية بلده أثناء الفتن إلى لبلة، ثم رحل إلى بجاية، وألف كتاب الأحكام الكبرى والصغرى وكتاب (الرقائق، والعاقبة، والتهجد، والتلقين)، و(المجمع بين الصحيحين)، و(اختصار كتاب أبي محمد الرشاطي)[٢].

وتربع على قمة علماء الفقه في عهد المرابطين وبداية الموحدين القاضي أبو بكر بن العربي، والذي وصفه تلميذه ابن بشكوال (بالإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس آخر أئمتها وحفاظها).

ولابن العربي مؤلفات عديدة وتلاميذه انتشروا في أنحاء الأندلس والمغرب، وتنوعت هذهِ المؤلفات سواء في الفقه أو الحديث أو الأدب، منها العواصم من القواصم، وقانون التأويل، وكتاب (القبس في شرح موطأ مالك)، وأحكام القرآن.

وله في الرحلات كتاب ترتيب الرحلة، وله في مدح الرسول (أنوار الفجر) كما ألف في النحو كتابه (التلخيص في النحو)، فضلاً عن مؤلفاته الأخرى في الفقه ، وبلغت مؤلفاته حوالي أربعين كتاباً، ولمّا اضطربت أمور المرابطين بالأندلس وغلب الموحدون على أشبيلية، عبر إلى المغرب على رأس وفد كبير من علمائها وأعيانها، ولقي الخليفة عبد المؤمن بمراكش أوائل سنة (٥٤٢هـ/١١٤٧م) عقب افتتاحها وقدم إليه بيعة أهل أشبيلية، وتوفي في نفس العام أثناء عودته، ومن الملاحظ أنّ ابن العربي برغم تحوله إلى الموحدين إلاّ أنّه لا يظن بمديحه للمرابطين وعهدهم[٣].

أمّا الدولة الموحدية، فتعرض المذهب المالكي في زمانهم إلى الاضطهاد والإزالة، فحين تولى الخليفة عبد المؤمن الحكم اتخذ خطوة أبعد من ذلك وهي أمره بحرق كتب الفروع والاقتصار على الأحاديث النبوية[٤]، يقول ابن أبي زرع (ثمّ دخلت سنة

---

[١] المرجع نفسه: ص٣٩٣.

[٢] ابن فرحون،إبراهيم بن علي (ت٧٨٨ه-١٣٨٦م) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب تحقيق الدكتور علي عمر ،مكتبة الثقافة الدينية ،الطبعة الأولى١٤٢٣ه-٢٠٠٣م ١٨٢/١، وينظر دندش، مرجع سابق: ص٣٩٣.

[٣] ينظر دندش، مرجع سابق: ص٣٩٣.

[٤] د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٤٦٦.

خمسين وخمسمائة فيها أمر عبد المؤمن تغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة)[١].

إلاَ أنّ علماء المالكية استمروا يمارسون نشاطهم في عهد الخليفة عبد المؤمن[٢] وابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[٣].

ومن الفقهاء المالكية البارزين في هذهِ المرحلة القاضي عياض بن موسى اليحصبي البستي المالكي الذي كان إمام المالكية في زمانه وقدوتهم، وجامع مذهب الإمام مالك وشارح أقواله والمدافع عنه[٤].

وقد برز دوره واضحاً حين رفع لواء الثورة ضد عبد المؤمن بن علي والموحدين ومنتصراً للمرابطين وهو في الواقع مدافع عن المذهب المالكي ضد الدعوة الموحدية، حتى إذا اندلعت ثورة ابن تومرت، كان من أسبابها جمود العلماء والفقهاء على علم الفروع وتركهم للأصول مع معارضتهم لعلوم الكلام، ومن هنا شن ابن تومرت حرباً شعواء على العلماء ولكنه لم يستطع مهاجمة المذهب المالكي الذي أصبح عقيدة ومذهباً لعامة الشعب، وقد تحايل ابن تومرت على تعلق الناس بمذهب الإمام مالك بأن ألف لهم موطأ جمع فيه الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ الإمام مالك بعد حذف معظم الإسناد منه للاختصار، وهي محاولة منه في صرف الناس عن المؤلفات المالكية[٥].

حتى إذا تولى المنصور الموحدي صنع ما كان جده ووالده يتمنيان فعله وهي محاولة محو مذهب الإمام مالك من البلاد، يقول المراكشي: (وهذا المقصد –أي محو مذهب الإمام مالك– بعينه كان مقصد أبيه وجده ألاّ أنهما لم يظهراه وأظهراه وأظهره يعقوب

---

[١] ابن أبي زرع، الأنيس: ١٥٤/٢.
[٢] د.حسن علي حسن، مرجع سابق: ص٤٦٦.
[٣] ابن الأثير،عز الدين ابو الحسن علي ، الكامل في التاريخ ،بيروت ،١٩٧٩م: ٩٢/٩، والمرجع نفسه.
[٤] المرجع نفسه: ٤٦٥.
[٥] ينظر:العبادي ،أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،الإسكندرية، نشر محمد أحمد بسيوني ،١٩٦٨م: ص١٠٩، ود.حسن علي حسن، مرجع سابق: ص٤٦٥.

هذا)[١]، وفي سبيل تحقيق هذا الغرض أمر بحرق كتب الفروع وأنّ الفتاوى تعتمد على كتاب الله وسنة رسول الله ع ولا يقلدون أحداً من المجتهدين[٢].

يقول المراكشي: (وفي أيامه –أي أيام المنصور الموحدي– انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ع والقرآن، ففعل ذلك)[٣]، وصارت كتب المذهب المالكي تجمع وتطلق فيها النار ومن هذهِ الكتب مدونة سحنون وكتاب ابن يونس، ونوادر أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي، ووضاحة ابن حبيب، وما جانس هذهِ الكتب ونحا نحوها[٤].

وقد برر هذا العمل أمام من حوله من العلماء بكراهيته للخلافات التي امتلأت بها كتب الفروع، وميله إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة والأخذ بظاهرهما وقد عبر المراكشي عن ذلك بالحوار الذي دار بين المنصور وأحد العلماء حين دخل عليه فوجد بين يديه كتاب ابن يونس فقال المنصور: يا أبا بكر أنا أنظر في هذهِ الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذهِ الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فلما حاول العالم تفسير ذلك قاطعه بالرد الحاسم: ليس إلاّ هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود أو هذا وكان يشير إلى السيف[٥].

السيف[٥].

وهكذا استغل المنصور كثرة الخلافات في كتب المذهب كذريعة لمحاولة القضاء على المذهب، وبالتالي القضاء على نفوذ علماء المالكية الذين يجلهم عامة الشعب، وحتى لا يترك الناس في فراغ أمر جماعة من العلماء بجمع الأحاديث من كتب

---

[١] المراكشي، المعجب: ص٢٧٩.
[٢] ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١١/٦، والمقري، نفح الطيب: ١٠٢/٤، ود.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٤٦٦.
[٣] المراكشي، المعجب: ص٢٧٨.
[٤] المصدر نفسه.
[٥] المراكشي، المعجب: ص٢٧٩، وينظر د.حسن علي حسن، مرجع سابق: ص٤٦٧.

الأحاديث مثل البخاري ومسلم وغيرهما في الصلاة وما يتعلق بها وغير ذلك من أنواع العبادات وجمعها وألزم الناس بدراستها وحفظها[١].

وحتى يؤكد أهمية هذا العمل، كان يملي هذهِ الأحاديث بنفسه، بالإضافة إلى رصده المكافآت والأموال لمن أقبل على حفظ هذا المجموع وأتقنه[٢].

وبجانب هذا الإجراء فأنه أظهر تعظيماً للمذهب الظاهري كبديل للمذهب المالكي[٣].

يقول ابن الأثير: (وكان –أي المنصور الموحدي– يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك، فعظم أمر الظاهرية في أيامه، وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية، منسبون إلى محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلاّ أنهم مغمورون بالمالكية ففي أيامه ظهروا وانتشروا)[٤].

إلاّ أنّ إجراءات المنصور ضد المذهب المالكي وميله للمذهب الظاهري، لم تفت في عضد علماء المالكية وظل علماء المذهب يكافحون في سبيل بقاء المذهب الذي ارتبط بالشعب ارتباطاً وثيقاً، متغلغلاً في نفوسهم ممتزجاً بأرواحهم، وقد عارض علماء المالكية خطوات المنصور الموحدي ومن هؤلاء محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الذي تابع تدريس كتب المالكية حتى أمر المنصور بسجنه في سبتة[٥].

ومحمد بن محمد بن خلف التجيبي المتوفى سنة (٥٩٣هـ) وأبو الحسين بن زرقون[٦]، وقد توفي أبو بكر الجياني المالكي نتيجة التعذيب وذلك لإصراره على التدريس بمذهب الإمام مالك[٧].

وكان أبو مدين المتصوف ومن حفاظ الحديث والمتوفى سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م) تأتيه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها[٨]، وهكذا وقف علماء المالكية لصد هذا التيار

---

(١) المصدر نفسه: ٢٧٨- ٢٧٩، وينظر المرجع نفسه.
(٢) المصدر نفسه: ٢٧٩، والمرجع نفسه.
(٣) د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٤٦٧.
(٤) ابن الأثير، الكامل: ٢٤٥/٩.
(٥) المرجع السابق: ص٤٦٨.
(٦) المرجع السابق.
(٧) د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٤٦٨.
(٨) المرجع نفسه.

التيار ونجحوا فيه واستمر المذهب المالكي في المغرب الأقصى[١] ألاّ أنّ هذا لم يمنع العلماء والفقهاء من التمتع بمنزلة كريمة في ظل الموحدين باعتبار أنّ الدولة قامت على أكتاف داعية ديني وهو المهدي بن تومرت، وكان الخلفاء يسبغون رعايتهم على العلماء، فالخليفة عبد المؤمن كان يقدر العلماء وينزلهم منازلهم اللائقة بهم، وكان يؤثرهم على غيرهم يقول المراكشي: (وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محباً لهم، محسناً إليهم، يستدعي من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته)[٢].

وسار على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في تكريم العلماء والعناية بهم فقد كان حريصاً على مجالسة الفقهاء ومحادثتهم[٣]، ومن مظاهر تقديره واحترامه واحترامه للعلماء أنّه حين قصد إلى الأندلس سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) وقصد أشبيلية، وخرج الناس لاستقباله ورؤيته فما أن أبصر الخليفة العالم ابن الجدّ حتى ترجّل عن فرسه وأقبل عليه وتعانقا[٤].

ونفس المنزلة تمتع بها العلماء والفقهاء في عهد المنصور الموحدي حيث كان يكرمهم ويشهد جنائزهم[٥].

يقول ابن أبي زرع (محباً –أي المنصور– في العلماء وقضاتهم صادراً عن رأيهم... يشهد جنائز الفقهاء والعلماء ويزورهم ويتبرك بهم... وأكرم الفقهاء وراعى العلماء والفضلاء)[٦]، وهؤلاء الفقهاء الذين نالوا التكريم والاحترام هم أتباع الأمير والذين وافقوه على طريقته بأبعاد المذهب المالكي والقضاء عليه، أمّا المخالفون فقد عرفت مصيرهم، منهم من هرب ومنهم من ألقي في السجن حتى مات.

وكان المال يغدق على الفقهاء من ولاة الأمور في زمن الدولتين المرابطية والموحدية، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين أغدق عليهم الأموال والأرزاق من بيت

---

[١] المرجع نفسه.
[٢] المراكشي، المعجب: ص٢٣٩.
[٣] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب : ١٨١/٢- ١٨٢.
[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٠/٤.
[٥] ابن الأثير، الكامل: ١٦٥/٩.
[٦] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب : ص١٥٦- ١٥٧ .

المال[١] فضلاً عن الهبات والأعطيات التي كان يمنحها ولاة الأمر كما فعل علي بن يوسف حين بعث المال إلى أحد العلماء وهو أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير والمتوفى بمراكش سنة (٥٢٠هـ/١١٢٥م) وذلك حين وفد إلى العاصمة مراكش[٢].

واتبع هذهِ السياسة خلفاء الموحدين في الأنفاق على العلماء والفقهاء، وكان الخليفة عبد المؤمن يجري المرتبات والأرزاق شهرياً، فضلاً عن هبته الأموال للفقهاء ممن ذلك أنه أكرم العالم أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي الصقر، بمبلغ خمسمائة دينار لكل مرة يأتي بها إليه[٣].

وتحولت حال الكثير منهم من الفقر والضنك إلى اليسر والرخاء نتيجة اتصالهم بالخلفاء والأمراء فالعالم أبو القاسم السهيلي والمتوفى بمراكش سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) نال دنيا عريضة بعد اتصاله بالخلفاء[٤] وغيره من العلماء الآخرين هذا المستوى المادي الذي حققه الفقهاء والعلماء وخاصة من اتخذ علمه وسيلة للتكسب وجمع المال، كان موضع نقد وهجوم من الشعراء، وذلك ما فعله الشاعر ابن البني حين هاجم أحد قضاة قرطبة[٥].

يقول المراكشي: (وفي ذلك –أي مهاجمة الفقهاء نتيجة لمكاسبهم المادية– يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم .

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في

---

[١] د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية: ص٣٤٠.
[٢] المرجع نفسه.
[٣] ينظر د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية: ص٣٤٠.
[٤] المرجع نفسه.
[٥] ينظر د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية: ص٣٤٠.

العالم

وإنما عرّض أبو جعفر هذا في هذهِ الأبيات بالقاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة وقد كان المقصود بهذهِ الأبيات[١].

وهذهِ الأبيات تدل دلالة واضحة عن مدى ضيق الشاعر وتضجره ممّا وصل إليه حال الفقهاء والعلماء من الرياء والنفاق الذي وصلوا إليه لنيل المكاسب والمنافع المادية

المبحث الثاني :تفكك دولة الأندلس إلى طوائف

وأمّا القرن الخامس الهجري، فقد اتسمت العلاقة بين تلك التيارات الطائفية السياسية بالعداء والصراعات الدموية التي أدت إلى ضعفها، وقد وصف أحد المؤرخين هذهِ الحالة بقوله (وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد، والتنافس، والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات)[٢].

وقال الفقيه ابن عبد البر[٣] الذي عاش تلك المرحلة (وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب على موضع ملكه واستعبد أهله، وكثر

---

[١] المراكشي، المعجب: ص١٧١- ١٧٢.

[٢] ابن الخطيب: الوزير لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٥٤م)، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق أ.ليفي بروفنسال (ط٢، دار المكشوف- بيروت، ١٩٥٦م): ص٢٤٤.

[٣] ابن عبد البر: أبو عمر يوسف النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم، نشره حسام الدين القدسي (طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ): ص٣٥.

فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذون منهم اليوم).

كما أن الأمير عبد الله بن بلقين[١] صوّر الحالة السياسية آنذاك بقوله: (وبقي الناس لا إمام لهم، فتنافسوا على الدنيا وطمع كل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف سلاطين كثيرة ؟! وأهواء مختلفة).

هذهِ الحالة أدت إلى طمع القوي بالضعيف، والتف كل عنصر حول حزبه، متناسين مسؤولياتهم الوطنية، وتجسدت العنصرية، والطائفية، والقبلية في الأندلس، فحرص كل منهم على السيطرة على جزء من الأندلس، وتقاسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى (المقتصد) ومنهم من تسمى (المأمون) وأخر (المتعين) و(المعتمد) و(الموفق) إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية، التي تعكس حالة التفكك والضعف والإنقسام[٢]، لذلك لم يصمد ملوك الطوائف أمام هجمات النصارى الذين وحدوا قواهم ليحققوا حُلمهم في استرجاع بلادهم من المسلمين.

واستعانت مماليك إسبانيا النصرانية هذهِ الفرقة بين ملوك المسلمين، فأعانوهم على بعضهم البعض لإضعافهم، وابتزاز الأموال منهم، قال ابن الكردبوس[٣]: (وكان أسرّ شيء على الفنش فتنة تقع بين الولاة –إشارة إلى ملوك الطوائف– من المسلمين، فيعين هذا على هذا، وهذا على هذا، فيستجلب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها).

وذكر دوزي[٤] أنّ الفونسو السادس كان له من القوة التي تمكنهُ من السيطرة على شبه الجزيرة، إلاّ أنه رأى إلاّ يتعجل ذلك، حتى يستنزف أموال المسلمين.

---

(١) ابن بلقين: الأمير عبد الله، أخر ملوك بني زيدي بغرناطة (٤٦٩- ٤٨٣هـ)، مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال (دار المعارف- القاهرة، ١٩٥٥م): ص١٨.

(٢) صور هذهِ الحالة أبو علي الحسن بن رشيق بقوله

ممّا يزهدني في أرض الأندلس . سَماعُ مقتدرٍ فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاضاً صولة الأسد

ينظر المراكشي، المعجب: ص١٢٣، وابن الخطيب، أعمال الاعلام: ص١٤٤.

(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصاب جديدان، تحقيق أحمد مختار العبادي (م١٣، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية- مدريد، ١٩٦٦م): ص٨٢.

(٤) دوزي رينهرت، المسلمون في الأندلس، ترجمة د.حسن حبشي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م): ١٢٥/٣، وفي هذا الشأن يقول ابن حزم: (إنّ مدّبر مدينة أو حصن في شيء من أندلستا هذهِ أولها عن آخرها،

ثم السيطرة على الأرض[١]، لأجل تحقيق ذلك جنحت الممالك النصرانية إلى الوحدة لتحقيق أهدافها القومية.

ولم يكن هذا الواقع السياسي المهتريء سوى إنعكاس للوضع الاقتصادي السيء الذي أفرزتهُ اعتداءات الفونسو، الذي شكل قوة ضغط على ملوك الطوائف، حتى جعلهم حسب تعبير دوزي[٢] (في المعصرة) وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سنّ ضرائب سنوية[٣] إزدادت مقاديرها بشكل كبير إلى درجة أن بعضهم عجز عن أدائها[٤]، فكانت جولاته العسكرية تعود كل مرة محملة بالضرائب، كما أصبح الفونسو (من أكبر الوجوه)[٥] التي ستضاعف الزحف المسيحي، ولعلّ تلقيب نفسه بذي الملتين[٦]، يؤيد هذا المعنى، ويدلل أيضاً على عزمه استرجاع الأندلس برمتها، وقد ظل الأمر على هذا النحو حتى قدوم المرابطين.

محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد، للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارّهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طريق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام...)، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس (ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٩٨٧م): ١٧٣/٣.

[١] ابن بلقين، التبيان: ص٧٣.

[٢] د.عمر راجح شلبي، دور علماء الأندلس في الحياة السياسية خلال القرن الخامس الهجري (مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الثاني): ص٢٦٥.

[٣] المرجع نفسه.

[٤] ابن بلقين، التبيان: ص٧٦، والمرجع نفسه.

[٥] المرجع السابق.

[٦] المرجع السابق.

\

المبحث الثالث: دور الفقهاء السياسي في الأندلس.

لقد ازدادت مكانة الفقهاء في القرن الخامس الهجري نتيجة حاجة ملوك الطوائف لتدعيم نفوذهم وسلطانهم، فكانوا بحاجة إلى القوة الروحية التي تتمثل في الفقهاء والعلماء، وكان بعض الفقهاء في هذا العصر أكبر مساند لأمراء الطوائف في تبرير سياساتهم وظلمهم للرعية، فيخدمون هذا الأمير أو ذاك من أجل الحصول على النفوذ والمال، ويضعون فتاويهم الفقهية في خدمة أمراء الطوائف تأييداً لظلمهم، حتى استفزت أعمالهم بعض كتاب ذلك العصر، ومنهم ابن حزم الظاهري الذي صور ذلك الواقع بقوله (لا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه، واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم)[1].

[1] رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس: ١٧٣/٣.

وفي عهد المستكفي بالله[١] تولى كثير من أصاغر الفقهاء الخطط المختلفة، وشغل بعضهم خطة الوزارة إلى جانب أراذل الناس، وكذلك بالغ في ترقية أصاغر الطبقة الفقهية لمنزلة الشورى فوسم كافتهم بوسم الفتوى، فأسرف في ذلك حتى بلغ عدد أهل الفتيا يومئذ الأربعين)[٢].الا أن بعض الفقهاء والعلماء رفضوا إعانة ملوك الطوائف على ظلمهم للناس، فرفضوا تولي المناصب احتجاجاً على الفوضى السياسية والأخلاقية التي كان يعيشها الحكام وقد عرّض قسم من أولئك العلماء أنفسهم لغضب الحكام وانتقامهم، كما حدث للفقيه (أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني) [٣] الذي قتله المعتضد بيديه، عندما نبهه إلى الخطر الذي يتهدد البلاد نتيجة خطأ سياسة ملوك الطوائف.

كما قام حفيد المعتضد المأمون الفتح بن محمد بن عباد بقتل الفقيه عمر بن حيان بن خلف بن حيان، ومثّل بجثتهِ عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م[٤].

وكان لتلك الممارسات من بعض ملوك الطوائف تجاه الفقهاء والعلماء أن ساعد في إنهيار نظام الطوائف، وإنهيار الدعامة الدينية التي أوجدها أولئك الفقهاء، وقد شارك العلماء والفقهاء بالحياة السياسة، فكانوا عنصراً فاعلاً في الصراع الدائر بين المتنافسين على السلطة السياسية أثناء ما يسمى (الفتنة البربرية)[٥] حيث قتل من الفقهاء أعداد كثيرة عند دخل البربر قرطبة سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م)، منهم: الفقيه

---

[١] المستكفي بالله: هو محمد بن عبد الرحمن، تولى الأندلس وله ثمان وأربعون سنة، وولد سنة ست وستين وثلاثمائة، يكنى أبا عبد الرحمن، تلقب المستكفي وولي ستة عشر شهراً، ينظر الحميدي، جذوة المقتبس: ٥٨/١، وابن بسام، الذخيرة، ق١، م١: ص٤٣٣.

[٢] ابن بسام، الذخيرة، ق١، م١: ص٤٣٥- ٤٣٦.

[٣] هو أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني، من أهل أشبيلية، رحل إلى المشرق سنة (٤٤٤هـ)، قتله المعتضد بالله عباد ظلماً بقصره، ودفن سنة (٤٦٠هـ)، ينظر ابن بشكوال، الذخيرة (القسم الثاني، المجلد الأول): ص٨١، والمقري، نفح الطيب: ٣٧١/٣.

[٤] ابن بشكوال، كتاب الصلة، القسم الثاني: ص٤٠٣.

[٥] الفتنة البربرية: بعد انتهاء الدولة العامرية ثارت في قرطبة وما حولها الفتن بين الأندلسيين والبربر، ويذكر ابن عذاري أن ابن عبد الجبار وواضح لمّا نزلا ابن عبد الجبار واضح إمام البربر في وادي آرة سنة (٤٠٠هـ)، وفي سنة (٤٠١هـ) نزل البربر بقرطبة ووصلوا الزهراء وعاثوا فيها قتلاً وخراباً، وهذهِ الأحداث عرفت بأسم الفتنة البربرية، ينظر ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٧/٣-١٠٧، ود.عمر راجح شلبي، مرجع سابق، ص٢٦٥-٢٦٦.

سعيد بن منذر بن سعيد البلوطي[١]، والفقيه عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصير الأزدي[٢]، والفقيه محمد بن سعيد السري الأموي الحرار[٣]، والفقيه أبو سلمة الزهدي[٤]، ومنهم من توفي في السجن مثل: الفقيه عبد الله بن سعيد بن خيرون بن محارب[٥] الذي يعرف بإبن المحتشم، ومنهم من خرج فاراً من قرطبة بعد غلبة البربر البربر عليها[٦]، وهذا القتل والسجن للفقهاء يدل على أنهم اشتركوا مشاركة فعّالة في الأحداث الدائرة في قرطبة قبل فتنة البربر، ممّا أدى إلى ملاحقتهم.

وقد ساعد انتشار الفقهاء في المدن الأندلسية على إحداث نهضة ثقافية، وعلمية في المناطق التي استقلت، وذلك لتنافس اولئك الملوك، على جذب الفقهاء إليهم لتأكيد شرعيتهم، فشغلوا مناصب عديدة لديهم[٧].

لقد مارس الفقهاء خلال القرن الخامس الهجري دورين: دوراً يمكن أن نسميه دينياً ووطنياً، وهذا الدور قام به الفقهاء الحقيقيون بوسائل عدة من خلال رسالة موجهة أو وصف للحال الذي تمرّ به الأندلس، أو الحزن والشكوى من المتنفذين، أو الدعوة إلى التوحيد ونبذ الفرقة، أو بذل الجهود للمصالحة، أو المشاركة في الجهاد.

---

[١] سعيد بن منذر بن سعيد، وهو ولد قاضي الجماعة منذر بن سعيد، من أهل قرطبة، كان خطيباً بليغاً، ذكياً، قتل يوم سيطرة البربر على قرطبة سنة (٤٠٣هـ)، ينظر كتاب الصلة: ص٢١٢ رقم الترجمة (٤٧٥).

[٢] هو عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الحافظ، يُعرف: بابن الفرضي، وهو من أهل قرطبة وصاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس، قتل يوم قرطبة سنة (٤٠٣هـ)، ينظر كتاب الصلة: ص٢٥١- ٢٥٥، رقم الترجمة (٥٧٢).

[٣] محمد بن سعيد بن السري الأموي الحرار، من أهل قرطبة، يكنى أبا عبد الله، قتله البربر يوم دخولهم قرطبة، وقد استقبلهم شاهراً سيفه يناديهم: إليّ إليّ يا حطب النار، طوبى لي إن كنت من قتلاكم حتى قتلوه سنة (٤٠٣هـ)، ينظر كتاب الصلة: ص٤٨٩- ٤٩٠، رقم الترجمة (١٠٥٩).

[٤] أبو سلمة الزاهدي، كان من الذين فتنوا بمحمد المهدي وناصره وكان زاهداً متقشفاً، وقع في أيدي البربر بعد دخولهم قرطبة، وذبحوه في منزله سنة (٤٠٣هـ)، ينظر كتاب الصلة: ص٢٣٢، رقم الترجمة (٥٣١).

[٥] عبد الله بن سعيد بن خيرون بن محارب يعرف بإبن المحتشم، مات في السجن في ربيع الآخر سنة (٤٠٣هـ)، (٤٠٣هـ)، وأسلم أهله في قيوده ودفن بمقبرة ابن عباس، ينظر كتاب الصلة: ص٢٥٨- ٢٥٩، رقم الترجمة (٥٧٤).

[٦] من الذين فروا من قرطبة الفقيه خلف بن مروان بن أمية المعروف بالصخري، والفقيه أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار، وكان أحد المتشددين في صلح البربر، فأهدروا دمه، ينظر كتاب الصلة: ص١٦٢، رقم الترجمة (٣٦٢)، والقاضي عياض، ترتيب المدارك: ٢٩٥/٢.

[٧] مثل الفقيه محمد بن معافى بن صمئيل الذي نزل بقرطبة سنة (٤٠٢هـ/١٠١٢م)، ثم انتقل إلى سرقسطة، والفقيه عريب بن مطرف بن عريب الذي نزل في كورة رية، ينظر ترجمتهم على التوالي كتاب الصلة: ص٥٠٣، رقم الترجمة (١٠٩٥)، وص ٤٥٠ رقم الترجمة (٩٦٥).

أمّا الدور الآخر فهو دور قائم على حساب المنفعة الشخصية والثراء المادي على حساب قضايا الأمة، ولحساب المتنفذين في السلطة ممثلين بملوك الطوائف والذي يهمنا من هذا هو دور الفقهاء الحقيقيين الصادقين.

المطلب الأول :دعوة الفقهاء إلى الوحدة.

عندما عجز ملوك الطوائف عن حماية المسلمين والوقوف بوجه النصارى وهجماتهم، بدأت دعوة العلماء إلى التوحد ومجاهدة الأعداء، ورغم دعوات هذهِ الوحدة فإن الأغلب صمّو أذانهم، ففوتوا فرصة الاتحاد والتضامن حتى وقعت كارثة سقوط طليطلة سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، فنشط العامة والفقهاء في المطالبة بالوحدة والجهاد في سبيل الله، وكان من أشهر الدعاة إلى الوحدة الفقيه الكبير أبو الوليد الباجي[١] الذي ما ترك مكاناً في بلاد الأندلس إلاّ ذهب إليه، داعياً إلى وحدة الصفوف ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع، وكانت هذهِ الجولة التي قام بها بعد عودتهِ من الشرق، حيث وجود الأندلس بعد غيابه عنها (ملوكها أضداد، وأهواء أهلها ضغائن وأحقاد، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد...)[٢].

وذكر المقري إلى أن الباجي (لما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم في الصلح، وهم يَجّلونه في الظاهر، ويشتقلونه في الباطن..).

نفهم من هذا أنّ الباجي الذي انتدب نفسه للطوائف على ملوك الطوائف لدعوتهم إلى الوحدة لم ينجح في تحقيق أهدافه، ولكنه استطاع أن يشعرهم بالمسؤوليات الدينية والوطنية الملقاة على عاتقهم، وضرورة نبذ خلافاتهم لمجابهة الخطر النصراني، وبعد أن تفاقم الخطر على الأندلس، التفت إليه بعض ملوك الطوائف فانتدبوه فيما بينهم، حتى أنه (كان يصحب الرؤساء ويُرسلُ بينهم...) كما قال القاضي عياض[٣].

---

[١] سبقت ترجمته.
[٢] الذخيرة، ق٢، م١: ص٩٥.
[٣] ترتيب المدارك: ٣٤٩/٢.

من هذين النصين السابقين يتبين أنه تم تكليف الباجي بمهمة دعوة الملوك إلى الوحدة وضد التمزق والتشرذم والاختلافات المميتة والتناحرات، لأن هدف الجميع في تلك المرحلة واحد وهو مجاهدة العدو المشترك، حتى أن المتوكل بن المظفر بن الأفطس (٤٦٠- ٤٨٧هـ/ ١٠٦٧- ١٠٩٤م) انتدب أبا الوليد الباجي للطواف على ملوك الطوائف، (ولما عظم عبث الطاغية أدفونش بن فرذلند وتطاول إلى الثغور، ولم يقنع بضرائب المال، انتدب للتطواف على أولئك الرؤساء القاضي أبا الوليد الباجي، يندبهم إلى لم الشعث، ومدافعة العدو، ويطوف عليهم واحداً واحداً وكلهم يصغي إلى وعظه)[١].

وذكر القاضي عياض في ترجمته للباجي أنهُ (توفي بالمرية سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلت من رجب، وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس، يؤلفهم على نصرة الإسلام، ويروم جمع كلمتهم مع جنود المغرب المرابطين على ذلك ألاّ أنّه توفي قبل تمام غرضه)[٢].

هذهِ النصوص تظهر دور الفقهاء الإيجابي في وحدة الوطن ولم الشمل والدفاع عنه متمثلة بشخصية الفقيه الكبير أبي الوليد الباجي الذي عمل سفيراً بين ملوك الطوائف وهو وإن لم يحقق مهمته بصورة كاملة لأنه توفي قبل إتمامها ألا أنه استطاع أن يكون رأياً عاماً لدى المسلمين هو المطالبة في الوحدة وفي الوقت نفسه أشهر الملوك والرؤساء بالخطر الكبير الذي سيحدق بهم إن لم يشعروا بمسؤولياتهم تجاه وطنهم.

المطلب الثاني :معارضة ملوك الطوائف.

لعب الفقهاء في الأندلس دوراً قوياً في انتقادهم لملوك الطوائف وتوجيه النقد اللاذع لهم على خنوعهم واستسلامهم للنصارى واضطهادهم للرعية من المسلمين ومن هؤلاء الفقهاء ابن حزم الظاهري الذي وصف ملوك الطوائف بأنهم محاربون لله تعالى وفاسدون لأخذهم أموال رعيتهم عن طريق الضرائب الجائزة التي يفرضونها عليهم[٣].

---

[١] د.عمر راجح شلبي، مرجع سابق: ص٢٦٧.
[٢] ترتيب المدارك: ٣٥١/٢.
[٣] ينظر رسائل ابن حزم الأندلسي: ١٧٣/٣.

وذكر أن الغاية القصوى لملوك الطوائف هي رعاية مصالحهم الخاصة، وتفضيلها على مصالح رعيتهم من المسلمين.

حيث قال(.... والله لو علموا أنّ في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وابنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه)[١].

كما أنّ ابن حزم طالب الناس بالثورة على ملوك الطوائف، مذكراً إيّاهم بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢]، وهذا يدل دلالة واضحة على تفشي المنكر بين الناس، فأدرك ابن حزم خطورة ذلك لأنه هدم في النسيج الاجتماعي للأمة، ولذلك طالب عامة الشعب ومثقفيه برفض مواقف الملوك وأعمالهم وانتقادهم، والتعبير عن عدم الرضا عن سياستهم ولو في القلوب.

أمّا ابن حيان فقد وجه نقده إلى الأمراء والفقهاء الذين ضلوا عن الطريق الصحيح، ومالوا إلى النزاع والفرقة، أمّا الفقهاء فمنهم من استساغ الجلوس على موائد الأمراء، ومنهم من ربط لسانه خوفاً من بطشهم، فيقول: (ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالملح فيهم: الأمراء والفقهاء.. فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق، ذياداً.. عن الجماعة، وحوشاً إلى الفرقة، والفقهاء إئمتهم صموت عنهم..)[٣].

كما أنّه علّق على أحداث نكبة بربشتر عام (٤٥٦هـ/١٠٦٤م) وعلل أسبابها وأنحى باللائمة على الناس والحكام بما أرتكبوا في جنب الله من ذنوب إهمالهم، وتقصيرهم في الأخذ بالشريعة، وتهاونهم في تنفيذ أوامرها، ممّا جرهم إلى حالة الغرقة وأذهب قوتهم[٤].

---

[١] المصدر نفسه: ١٧٦/٣.
[٢] المصدر نفسه: ١٧٤/٣.
[٣] الذخيرة، ق٣، م١: ص١٨٠- ١٨١.
[٤] نفح الطيب: ٢٠٨/٦.

وقد أنحى باللائمة على أمراء السوء في دول الطوائف، الذين انحرفوا عن نهج الإسلام ملوماً الناس لركونهم إلى أمثال هؤلاء الأمراء.

كما أن أبا إسحاق الألبيري في قصيدته التي حرض فيها على اليهود، انتقد باديس بن حبوس أمير غرناطة، لتقريبه اليهود واستوزارهم في مملكته بقوله[1]:

لقد زل سيدكم زلة تقرّ بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافراً ولو شاء كان من المؤمنين

.

فعزّ اليهود به وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين

فالفقهاء الذين اتسموا بالتدين والوطنية ذكروا أن أسباب فساد الوضع في الأندلس الأول يتمثل بفساد الأمراء الذين يركضون وراء مصالحهم الشخصية على حساب مصالح الأمة والوطن، والثاني فقهاء السلاطين الداعمين لهم، وكلا الفئتين مرفوضة لأنها تعمل على حساب مصالحها الشخصية، فأدى الأمر إلى تساقط مدن الأندلس بيد النصارى الواحدة تلو الأخرى، وثبت الفقهاء الصادقون الذين حافظوا على وحدة الأمة من خلال توجيه المجتمع إلى التماسك والوقوف بوجوه الأعداء.

المطلب الثالث :دعوة الفقهاء إلى الجهاد.

إنّ ما قام به الفقهاء من الدعوة إلى الوحدة ولمّ الشمل، كان له الأثر الكبير في إستجابة بعض ملوك الطوائف لدفع الخطر المحدق بهم، وبالأندلس على وجه العموم، فلم يستطع ملوك الطوائف أن يستمروا بصم آذانهم عن دعوات ونداءات الفقهاء التي تدعوهم لرص صفوفهم وتوحيدهم والاستنجاد بأخوانهم من المرابطين بالأندلس فقط بل أتجه وفد شعبي من الأندلس سنة (٤٧٤هـ/١٠٨١م) إلى المغرب لاستصراخ ابن تاشفين لإنقاذ الأمة الإسلامية ممّا هي فيه من تكالب النصارى

---

[1] ابن لخطيب ، أعمال الأعلام، القسم الثاني :الأندلس ، نشر ليفي بروفنسال بيروت ، دار المكشوف ،١٩٥٦م: ص٢٣١.

عليهم، وعرضوا على يوسف بن تاشفين المخاطر التي تهدد الأندلس من النصارى من ظلم وإضطهاد وذل وهوان، فوعدهم بالمساعدة بإمدادهم بالمدد والعون، وصرفهم إلى أوطانهم، ومن تلك الجهود ما أورده صاحب التكملة في ترجمة أبي عبد الله محمد بن حسين بن محمد بن عريب الأنصاري (ت بعد عام ٥٠٨هـ) أنه (سكن سرقسطة، وتجول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة... وكان وجيهاً عند الملوك متردداً عليهم)[١].

وكان المتوكل على الله بن الأفطس صاحب بطليوس أول من كتب إلى يوسف بن تاشفين يطلب عونه، مبيناً له الحالة العامة السائدة في الأندلس، التي تُظهر ضعف الطوائف وتكالب الأعداء عليهم من النصارى، ويستعطفه بنصرة الإسلام والمسلمين، لا لنصرة الملوك ويبدو أنّ هذهِ الرسالة لم تكن الأولى إلى يوسف بن تاشفين، فقد سبق وأرسل إليه ابن الأفطس يطلب معونته حيث قال: (ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله بالنازلة في مدينة قرمونة)[٢].

يقول الدكتور عمر راجح شلبي (ويبدو أنّ تلك الغارات الأندلسية المبكرة إلى ابن تاشفين كانت من وجهاء مختلف مدن الأندلس، فبعد سقوط طليطلة وفد على ابن تاشفين العديد من الغارات طلباً للنجدة)[٣].

وكان يوسف بن تاشفين تنزل عليه الوفود من الأندلس وهم مجهشون بالبكاء مستعطفينه، وينشدونه الله والإسلام، ومستنجدين بحضرته، ووزراء دولته فيستمع إليهم، ويصغي إلى أقوالهم[٤].

وقد أرسل المعتمد بن عباد كتاباً إلى يوسف بن تاشفين سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، بيّن له فيه الحالة التي وصل إليها ملوك الطوائف في الأندلس من الفرقة والتخاصم، وعدم نصرة بعضهم بعضاً وطلب منه النجدة[٥].

---

[١] ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة: ٣٣٤/١.
[٢] د.عمر راجح شلبي، مرجع سابق: ص٢٧١.
[٣] المرجع نفسه.
[٤] ينظر المرجع نفسه.
[٥] ينظر المرجع نفسه.

ويذكر أن المعتمد بن عباد نهض إلى يوسف بن تاشفين في دار إقامته بالمغرب بنفسه لطلب العون، ونجدة المسلمين ثمّ قدم له شرحاً وافياً عن الوضع السياسي والعسكري لأمراء الطوائف، وأشتداد وطأة الفونسو على المسلمين وما يمارسه بحقهم من القتل والأسر والحصار، وقد أثار ذلك الحمية الإسلامية في يوسف بن تاشفين، فقال للمعتمد: (أرجع إلى بلدك وخذ في أمرك، فإني قادم عليك في إثرك إن شاء الله...)[١].

ممّا سبق يظهر أن العلماء والفقهاء قاموا بدورهم الديني والوطني على أكمل وجه، فقد أبدوا معارضتهم لملوك الطوائف وذلك لتقاعسهم عن رد النصارى والوقوف بوجوههم، وفي الوقت نفسه بذلوا جهوداً عظيمة لإقناع ملوك الطوائف للتوحد والاستنجاد بالمرابطين للدفاع عن الإسلام والمسلمين، فضلاً عن مشاركة الفقهاء في المعارك المختلفة بين المسلمين والأعداء، فالفقيه يعلى المصمودي الذي شارك في معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، واستشهد فيها[٢] كما استشهد في المعركة نفسها الفقيه فضل بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ولد الفقيه والحافظ الكبير ابن حزم الظاهري الأندلسي[٣]، ومنهم من اشترك في المعركة إلا أنه لم يرزق الشهادة في سبيل الله مثل الفقيه الكاتب أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة، الذي أنفرد بذكر روايته حول معركة الزلاقة، والتي تُعدّ من الروايات النادرة التي وصلت على لسان شاهد عيان[٤].

وكانت حملة العلماء تلك من الوسائل المهمة التي أدت إلى وقف التوسع النصراني في الأندلس، وإلى بعث المصلحة الإسلامية العليا في نفوس ملوك الطوائف، فالمعتمد بن عباد عندما قرر طلب العون من ابن تاشفين نصحه بعض الملوك أن يتريث في ذلك، وحذرته حاشيته من عاقبة الأمر[٥]، إلا أنه لم يلتفت إلى تحذيراتهم،

---

[١] المرجع نفسه: ٢٧١- ٢٧٢.
[٢] ابن عبد الملك: أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي (ت ٧٠٣هـ)، الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة، السفر ١، ق٢، تحقيق محمد بن شريفة (طبعة بيروت): ص٤٢٥.
[٣] الصلة، رقم الترجمة (٩٩٧).
[٤] ابن بسام، الذخيرة، ق٢، م١: ص٢٤١.
[٥] ابن عذاري، البيان: ١٣٢/٤.

تحذيراتهم، وأجابهم بقوله المشهور: (رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير)[١]، يريد بذلك أن يكون أسيراً لدى ابن تاشفين يدعى جماله، خير له من أن يكون أسيراً لدى الفونسو يرعى خنازيره.

وهذا القول يدل على الوعي الكبير والحس الوطني والديني الذي وصل إليه ابن عباد في الحفاظ على وجود الإسلام في الأندلس، ولو كان على حساب مصالحه الشخصية، إلا أن تلك النظرة وذلك الوعي لم يستمر إلى ما لا نهاية، فقد عاد هو وغيره لتجديد الولاء لملوك النصارى على حساب المصلحة الوطنية والدينية[٢].

ويبدو لي أنّ من أثر على موقفه هذا حاشية وحب السلطة وهذا شأن الكثير من السلاطين والله اعلم.

المطلب الرابع : تخليص الأندلس من حكم ملوك الطوائف.

لم يتوقف دور الفقهاء في تلخيص الأندلس من الخطر النصراني بالدعوة إلى الوحدة والجهاد والاستنجاد بالمرابطين فحسب، بل تجاوز ذلك إلى تخليص الأندلس من حكم ملوك الطوائف الذين عادوا إلى سيرتهم الأولى من التفكك والتودد إلى ملوك النصارى.

فسعى الفقهاء للإطاحة بملوك الطوائف وطالبوا من ابن تاشفين أن يطيح بهم ويخلصهم منهم فأصدروا الفتاوى التي تجيز ذلك.

فقام القاضي ابن سهل بإخبار ابن تاشفين بإنقسام جيش إمارة غرناطة وإنهيار معنوياته، وترحيب سكان الإمارة بابن تاشفين.

لتخليصهم من حاكمها[٣]، كما أنّ الفقيه أبا جعفر بن القليعي قام بتحريض ابن تاشفين للقضاء على ملوك الطوائف[٤]، وكان أبو بكر بن مُسكّن أكثر العلماء تحريضاً لابن تاشفين للقضاء على ملوك الطوائف عامة[٥].

---

[١] المصدر نفسه: ١٣٢/٤.
[٢] د.عمر راجح شلبي، المرجع السابق: ص٢٧٢.
[٣] ابن بلقين، التبيان: ص١٤٦.
[٤] المصدر نفسه: ص١١٨.
[٥] المصدر نفسه: ص١٢٨.

وقد ذكر ابن الخطيب هذا التحريض على ملوك الطوائف عموماً بقوله: (... وداخله الناس في شأنهم، ودست إليه السعايات بهم، فأعاد الجواز ثالثة سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) وشرع في خلعهم، فتم له ذلك...)[١].

ويذكر أنّ ابن تاشفين قد أقسم على عدم الغدر بالمعتمد ابن عباد وعدم خلعه، إلاّ أن فقهاء أشبيلية وقضاتها وأعيانها قالوا له: (...هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم، ولا تجوز إمارتهم إنهم فّساق فجرة، فأخلعهم عنا، فقال لهم: وكيف يجوز لي ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على إبقائهم؟ فقالوا له: إن كانوا عاهدوك فهاهم قد ناقضوك، وأرسلوا إلى الفنش أن يكونوا معه عليك، حتى يوقعوك بين يديه، ويعود أمرهم إليه، فبادرهم بخلعهم بجمعهم، ونحن بين يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فإنك أن تركتهم وأنت قادر عليهم، أعادوا بقية المسلمين إلى الروم، وكيف أنت المحاسب بين يدي الله تعالى)[٢].

لاشك أنّ الفقهاء بهذهِ الفتاوى التي أصدروها تبدو مكانتهم الدينية والعلمية في تغير الواقع السياسي الذي تعيشه الأندلس.

ومن الفقهاء الذين أفتوا بجواز تنحية ملوك الطوائف عن حكمهم أبو بكر الطرطوشي[٣] وسانده في ذلك علماء المشرق وعلى رأسهم الإمام الغزالي الذي أفتى بضرورة تنحية ملوك الطوائف، ورأى (أنّ الإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد)[٤].

وفتوى الإمام الغزالي[٥] تدل على أنّ أمر الأندلس ليس مقتصراً على مسلمي الأندلس وحدهم، وإنّما هي قضية جميع المسلمين الحريصين على بقاء دولة الإسلام

---

[١] أعمال الأعلام : ص٢٤٧.

[٢] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ص١٠٦- ١٠٧.

[٣] هو أبو بكر بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي، صاحب كتاب سراج الملوك، ويعرف بابن زندقة، توفي بالإسكندرية سنة (٥٢٠هـ/١١٢٦م)، نيظر بغية الملتمس: ص١١٧، ونفح الطيب: ٣٠٠/٢.

[٤] دندش،مرجع سابق ، ص٢٠٠- ٢٠١.

[٥] هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ولد سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، وتفقه على يد إمام الحرمين الجويني، ودرس بالمدرسة النظامية في بغداد سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م)، من مؤلفاته إحياء علوم الدين والمستصفى والمنخول وغيرها، توفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م)، ينظر ابن الأثير، الكامل: ٢٩٤/٨- ٢٩٥.

في تلك البقعة من العالم، وعدم جواز التفريط بالأرض للنصارى المترابطين لكل فرصة للاستيلاء على الأندلس.

((الخاتمة))

بعد هذه الرحلة المباركة أود أن الخص بعض النتائج التي توصلت إليها و هي على النحو الآتي:

١- للفقهاء دور بارز و مكانة مرموقة لدى أكثر الحكام و الخلفاء فقربوهم منهم كعبد الرحمن الداخل و هشام بن عبد الرحمن و غيرهم.

٢-ثورة الفقهاء ضد الظلم و الطغيان و الاستبداد المتمثل بالحكم بن هشام، إلا انه استطاع أن يقضي على هذه الثورة و إعدام (٧٢) فقيها من فقهاء الأندلس الكبار.

٣-ضعف دولة الأندلس و تقسيمها إلى طوائف و دويلات صغيرة و تابعة إلى ملوك النصارى بسب التنافس على الزعامات و الرئاسات ووصل الأمر إلى أن يفرض ملوك النصارى ضرائب مضاعفة على المسلمين بعد ما كانوا يؤدونها لهم.

٣-الخذلان و الانبطاح و الذل الذي وصل إليه ملوك الطوائف حتى أنهم لا يستطيعون أن يصمدوا أمام هجمات الأعداء الذين وحدوا قوتهم واستطاعوا احتلال الأرض مرة أخرى.

٤-استغلال الضعف و الفرقة بين ملوك الطوائف من ملوك اسبانيا، ما أدى إلى ابتزازهم و استنزاف اقتصادهم .

٥-إعانة ملوك اسبانيا بعض أمراء الطوائف بالمال و السلاح لتقويتهم على الأمراء الباقين و إحداث الاقتتال فيما بينهم لإضعاف و حدة المسلمين .

٦-دعوة فقهاء الأمة المخلصين في الأندلس أمثال الفقيه الكبير أبي الوليد الباجي إلى الوحدة و الصمود بوجه الأعداء عندما فشل ملوك الطوائف في الدفاع عن المسلمين و حذر من الفرقة و النزاع .

٧-دعوة الفقهاء الصادقين إلى الثورة على ملوك و أمراء الطوائف الذين خذلوا الأمة باستسلامهم لملوك اسبانيا و ظلمهم للرعية من المسلمين و مثّل هذه الدعوة الفقيه الكبير ابن حزم الظاهري رحمه الله .

٨-أدرك الفقهاء أن ما وصلت إليه الأمة و ما حل في الأندلس بسبب سلاطينها و ركضهم وراء مصالحهم الشخصية على حساب مصالح الأمة و الوطن و بسبب فقهاء السلاطين الداعمين لهم .

٩-دعوة الفقهاء إلى رص الصفوف في مجابهة الأعداء حتى أنهم ألفوا وفدا شعبيا و ذهبوا إلى المغرب لاستصراخ يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٤هـ لإنقاذ الأمة من تكالب الأعداء .

١٠-مشاركة الفقهاء الصادقين في الدفاع عن الإسلام و المسلمين و استشهاد البعض منهم في المعارك منهم الفقيه يعلى المصمودي و الفقيه فضل بن علي بن احمد بن سعيد ولد الفقيه الكبير ابن حزم الظاهري الأندلسي في معركة الزلاقة.

١١-سعي الفقهاء الصادقين في تخليص الأندلس من ملوك الطوائف و إصدارهم فتاوى تطالب يوسف بن تاشفين بالقضاء عليهم ومن هؤلاء الفقهاء الإمام أبو بكر الطرطوشي والإمام الغزالي.

قائمة المراجع والمصادر

القرآن الكريم

١-ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط ، ١٩٧٢م.

٢-ابن الأثير،عز الدين ابو الحسن علي ، الكامل في التاريخ ،بيروت ،١٩٧٩م

٣-ابن بشكوال،خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨هـ-١١٨٢م) كتاب الصلة .القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر،١٩٦٦م

٤-ابن بلقين: الأمير عبد الله، أخر ملوك بني زيدي بغرناطة (٤٦٩- ٤٨٣هـ)، مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال (دار المعارف- القاهرة، ١٩٥٥م)

٥-ابن حزم ، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس (ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٩٨٧م)

٦-ابن الخطيب: الوزير لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٥٤م)، كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق أ.ليفي بروفنسال (ط٢، دار المكشوف- بيروت، ١٩٥٦م).

٧-ابن عبد البر: أبو عمر يوسف النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم، نشره حسام الدين القدسي (طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ.

٨-ابن عذارى ،احمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ-١٣١٢م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج . س كولان وليفي بروفنسال .ط٢ .بيروت :١٩٨٠

٩-ابن القوطبة، تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، تحقيق إبراهيم الأبياري (ط٢، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٨٩).

١٠-ابن فرحون،إبراهيم بن علي (ت٧٨٨هـ-١٣٨٦م) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب تحقيق الدكتور علي عمر ،مكتبة الثقافة الدينية ،الطبعة الأولى١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

١١-ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصاب جديدان، تحقيق أحمد مختار العبادي (م١٣، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية- مدريد، ١٩٦٦م)

١٢-د.حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس.

١٣-دندش، عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا (طبعة بيروت، ١٩٨٨م .

١٤-دوزي رينهرت، المسلمون في الأندلس، ترجمة د.حسن حبشي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م) .

١٥-العبادي ،أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،الإسكندرية، نشر محمد أحمد بسيوني ،١٩٦٨م.

١٦-عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس (مكتبة نهضة الشرق).

القاضي عياض ، ترتيب المدارك

١٧-مؤنس،حسين ، شيوخ العصر في الأندلس.القاهرة :الديار المصرية للتأليف والترجمة،١٩٦٥م.

١٨-المقري،أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ-١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .بيروت :دار الكتاب العربي ، بلا .تأريخ.